الفصل الثاني

جواسيس حلقة كامبريدج

حَوَّلت مجازر الحرب العالمية الأولى ، ورُعْب الثورة البلشفيّة الروسية ، «اللعبة العظيمة» التي تحدَّث عنها روديارد كيبلينغ إلى عمل خطير ؛ كان على وشك أن يزداد شؤماً وشروراً . وتشاء سخرية الأقدار أن يأخذ أحد الرجال الذين جعلوه عملاً خطيراً ، اسمه من بطل رواية كيبلينغ - كيم . . .

«فيلبي» يحفر عميقاً

كانت جامعة كامبريدج ، لعدّة عقود من الزمن ، معقل الإمتياز وموطأ القدم لانتقال النخبة الثريّة من المدرسة الثانوية الداخليّة الأهلية العامة إلى الوظيفة الحكوميّة . وفي جوّ ، اقتصر على فئة قليلة ، تلفّه روح المودة وطابع الإنعزال وتحميه من واقع الحياة المؤلم ـ أمضى شبان أذكياء ، يميّزهم التكبر والثقة الزائدة بالنفس ، ٣ سنوات من الدراسة في صفٍّ لم يكن حقّه في حكم البلاد موضع تساؤل . وفي الثلاثينات من هذا القرن ، بدأت دُفعةٌ من المقبولين حديثاً في الجامعة ، يحملون عقيدة جديدة ، بالتخرّج من المبنى الرباعي المعزول عن العالم الخارجي . كانت تلك المجموعة من الطلاّب تضم الجواسيس الشيوعيين العظماء من أمثال غاي بورغيس ، دونالد ماكلين ، كيم فيلبي ، وأنتوني بلانت ؛ وحسب رأي خبراء الجاسوسية كان هناك رجل خامس احتمى من الخزي والعار الذي يستحقّهما بالقوانين التي تمنع التشهير .

لم يتمّ بالكامل تحديد مدى الأضرار ؛ التي أصاب بها الرجال الخمسة ، بريطانيا وأمريكا وأطرافاً ثالثة لا ذنب لها على الإطلاق ، بعد (٥٠) سنة ناصروا فيها القضيّة السوفييتية . قال أحد المتحدثين الرسميين باسم وزارة الخارجيّة البريطانيّة : «لقد سلب فيلبي البلدان الأوروبية من حريّتها» . وقال أحد رجال الإستخبارات المركزيّة الأمريكية للصحفيين : «يُمكن أن يقال ... عود الإستخبارات الغربية ، ما بين الأعوام ١٩٤٤ و١٩٥١ ، بأنّها كانت سلبية الفائدة . وكان من الأفضل لنا لو أننا لم نفعل شيئاً» . ومع ذلك ، وبشكل لا يُصدَّق ، لم يُقدَّم أيّ واحد منهم إلى العدالة على الإطلاق . هرب بورغيس ، وماكلين وفيلبي إلى موسكو . وسُمح لبلانت أن يبقى في عمله ـ ماسح صور الملكة ـ ويحتفظ بلقب الفارس لمدّة (١٥)سنة بعد اعترافه بأنّه قام بالخيانة في عام ١٩٦٤ . أما الخائن الثالث الذي يجب إبقاء فضح أمره إلى ما بعد وفاته ، فقد مُنح حصانة من المقاضاة مقابل المعلومات التي قالها .

نجح سادة الأعمال التي تجري في الخفاء ، بإدانة المئات من الناس بجرائم حُكم عليهم بموجبها بالموت ؛ لأنَّ المحكمة كان بإمكانها أن تغفر تقريباً لأيٍّ تصرّف طالما أنّ الرجل من أصل كريم . فتمَّ التفكير مليّاً حول كون الأصل والمدارس

Cambridge University

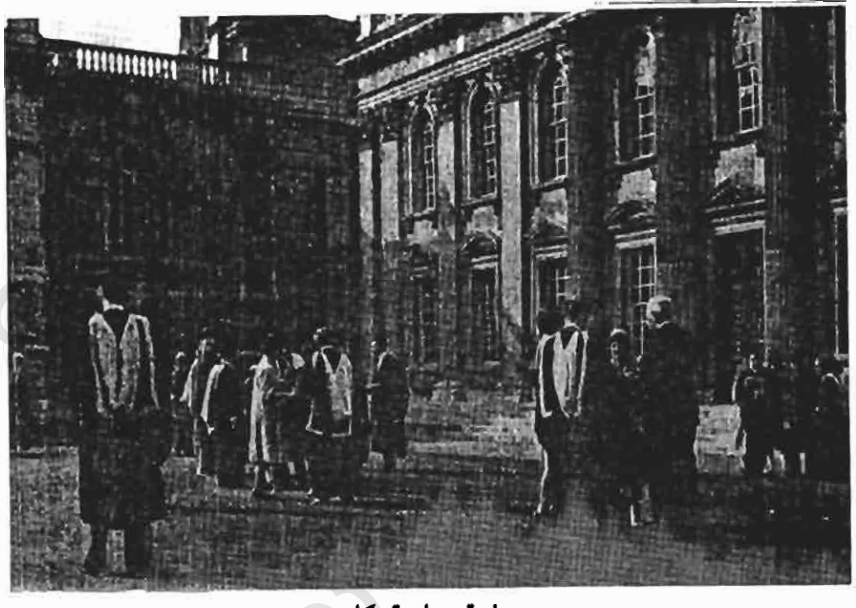

ـ ساحة جامعة كامبردج .

والجامعات والنوادي والأفواج العسكرية أموراً جديرة بأن يُعوَّل عليها . وكان جميع الجواسيس العظماء مؤهلين ومحلّ ثقة على تلك الأسس .

كان هارولد أدريان روسل فيلبي ، الملقب بـ كيم ، شخصاً موسوساً (شديد التدقيق في التوافه والتفاصيل) أكثر من كونه الابن الذكي للمغامر الذي كان مشتركاً في أحداث الهند البريطانية . وصل كيم عام ١٩٢٩ إلى جامعة ترينيتي في كامبريدج لدراسة التاريخ والإقتصاد . وبعد عام واحد ، انتقل غاي فرانسيس دومونسي بورغيس ، الابن المدلل غريب الأطوار لقائد بحري ، إلى القاعات التي تقع في آخر الممر نفسه ، لدراسة التاريخ . وفي عام ١٩٣١ ، وصل دونالد ماكلين ، الابن الخجول والذكي لوزير حزب الأحرار المتزمت في مجلس الوزراء البريطاني ، ليَدْرس اللغة الفرنسيّة .

كانت تغييرات كثيرة قد حدثت في جامعة كامبريدج منذ أيام آبائهم . إذ جَلَب الكساد الإقتصادي والبطالة خيبة أمل عامّة . كانت الوظائف نادرة ؛ حتى للأفراد الحاصلين على شهادات عالية . وقد هُزمت حكومة العمال عام ١٩٣١ في

الإنتخابات بعدما كانت الأمل الكبير الذي حلم به الشعب ليأتي بالتغيير.

ومشت أزمة فقد الثقة بجدوى الرأسمالية الإقتصادية يداً بيد مع القلق الناجم عن سحب الحرب التي تجمعت فوق أوروبا. وبدت بريطانيا غير راغبة بالوقوف في وجه المدّ المتصاعد للفاشية. فهل تقف إلى جانب ألمانيا النازيّة ضد روسيا؟ حارب طلاب مُعاودون للفاشية فيما بعد وماتوا في سبيل القضيّة الجمهوريّة في الحرب الأهليّة الإسبانية كما اختار آخرون طريقاً أكثر سريّة لإيصال إشمئزازهم. وكان المجندين السوفييت يستفيدون من غضب الطلاّب المصحوب بالقلق.

في كامبريدج، كتب دونالد ماكلين مقالة في إحدى المجلات يندد فيها بـ«كُلّ هذا الفساد الإجرامي الذي أفرزه عقلٌ مريض» من المجتمع الرأسمالي الذي كان محتوماً عليه أن يتلاشى من الوجود». ومع ذلك، نجح في عام ١٩٣٥ في اجتياز فحص القبول للعمل لدى إحدى دعامات المجتمع الرأسمالي ـ وزارة الخارجيّة البريطانيّة. وأُرسل إلى السفارة البريطانية في باريس حيث استطاع أن يبرهن على كونه أحد النجوم الصاعدين في مهنة العمل الدبلوماسي.

وفي كامبريدج أيضاً، نظّم غاي بورغيس إضراباً مع إدارة وطلاب الكُليّة، وكان بارزاً في المظاهرات ضد الحرب وارتفاع أجور المساكن. لكنّه بعد رحلة قام بها إلى موسكو في عام ١٩٣٤، كان أيضاً في لندن يبحث عن مكان عمل يلائم كفاءاته العلميّة. وعندما فَشِل في محاولاته للإنضمام إلى مكتب المحافظين المركزي وجريدة التايمز، أقلع رحاله ليُصبح المساعد الشخصي لعضو المحافظين في البرلمان ـ جاك ماكنمارا ـ ورافقه في ثلاثة رحلات الى المانيا الهتلريّة.

كما أصبح كيم، في كامبريدج، عضواً شيوعيّاً لكنه بقي متحفظاً. وفي عام ١٩٣٤، ذهب إلى فيينا، وكان شاهد عيان على إراقة الدماء المريرة في الشوارع ـ عندما حاولت الحكومة النمساويّة إخماد المحاولات الاشتراكية لتحدي النظام القديم. وساعد الشيوعيين على الهرب من ملاحقة الشرطة؛ وتزوج من ابنة احد الإقطاعيين واسمها أليس كيتزي فريدمان ـ جاسوسة روسيّة ـ ليساعدها على الهروب كمواطنة بريطانيّة. وبحلول عام ١٩٣٦، كان يحضر اجتماعات الجناح اليميني لجمعيّة الأعضاء الأنغلوألمانيين في لندن، ويقوم بطبع مجلتها المؤيدة لهتلر.

كان ثلاثتهم يصقلون خلفيات اجتماعية محافظة بعناية ، وذلك بقلب وجهات نظرهم ، ليدفنوا ماضيهم المتمرد وراء ظهورهم . كما كانوا خاضعين للأوامر القاضية بأن يدخلوا المؤسسة كأحصنة طروادة سوفيتية . وتشبثت المؤسسة بهم وجذبتهم بقوة إلى قلبها .

وفي شهر شباط من عام ١٩٣٧ غادر فيلبي بريطانيا متجهاً إلى اسبانيا ليغطي الحرب الأهلية من الجانب الفرنسي ، في البداية بصفته مراسل مستقل ، ومن ثمّ كمراسل خاص لمجلة التايمز . وقد ترك انطباعاً قوياً بتقاريره الدقيقة والنزيهة . كما قام بإجراء اتصالات هامة مع الإستخبارات البريطانية وحيث أنّ الروس كانوا يؤيدون الجمهوريين ، فقد كان باستطاعته أن يغذّي موسكو بأسرار المعارضة .

وبعد وصوله بفترة قصيرة ، نجا فيلبي من الموت بأعجوبة في حادث رهيب ، وفّر على ملاحقي الجواسيس في الغرب كابوساً كان سيدوم ٢٦ عاماً . إذ أصيبت سيارته بقذيفة روسية الصنع . ومات ثلاثة صحفيين كانوا معه بينما نجا فيلبي ورأسه مليء بالجراح .

وبعد ثلاثة أشهر حان موعد احتفال مهيب اتسم بنوع من السخرية ، فقد زيّن الجنـرال فرانكو ـ زعيم الفاشيّة الذي كان فيلبي يعارضه بشكل سري ـ بفخر صدره بوسام الصليب الأحمر الذي يُمنح للجدارة العسكرية . وكانت هناك مواجهة أخرى اتسمت أيضاً بطابع التهجم والسُّخرية ؛ عندما عاد فيلبي إلى انكلترا عام ١٩٣٩ . إذ أُجريت معه مقابلة في إذاعة الـ بي بي سي ـ من قبل غاي بورغيس .

كان بورغيس مُحادث بارع استطاع كسب أصدقاء من الطبقات الغنية ومن ذوي النفوذ والسلطة ؛ وذلك برغم إفراطه بتناول المسكرات وشذوذه الجنسي الصارخ . وكان يجمع بين عمله لماكنمارا مع عمله الجديد في محطة إذاعة الـ بي بي سي ، وكلا العملين جلبا له اتصالات هامّة ، في بريطانيا وأوروبّا عموماً . فأعطاه وينستون تشرتشل مجموعة خطابات مصورة . ومع تقدم الحرب ، أصبح مراسل سري للقائد الفرنسي إداوارد دالاير والديكتاتور الإيطالي بينيتو موسوليني ؛ عندما حاول نيفيل تشامبرلاين ـ رئيس الوزراء البريطاني ـ أن يستهل محادثات ثنائية جديدة خارج النطاق الدبلوماسي العادي في محاولة يائسة للوصول إلى السلام .

بعيداً عن اعلام الروس عن التطورات الحاسمة ، كان بورغيس يستخدم

شخصيات من المجتمع الراقي وكانت رحلاته إلى أوروبا ليكسب ثقة الإستخبارات البريطانيّة . ودفعوا له على المعلومات المفيدة . وفي كانون الثاني من عام ١٩٣٩ ، أثمرت جهوده التي استعمل فيها أساليب ملتوية ؛ إذ عرضت عليه الـ (إم أي ٦) عملاً يشغل وقته كلّه .

كانت أعداد العاملين في الإستخبارات الحربية قليلة جداً ، وكانت إحدى أعمال بورغيس تجنيد أكبر عدد ممكن من الرجال .وكانت الأرضية التي اصطاد عليها هؤلاء المجندين هي نوادي الأثرياء والحفلات الإجتماعية في غرب لندن ، وفي آب من عام ١٩٤٠ ، تمّ تقديم رجل جديد ، عائد من عمله كمراسل حرب في فرنسا ، من قبل بورغيس ـ كان كيم فيلبي ، الذي انفصل عن زوجته ليتزي ليقطع علاقاته الشيوعية المعروفة جيداً .

تركت مزايا فيلبي انطباعاً سريعاً على قادة الجاسوسية الذين كانوا أكثر اعتياداً على الجهود الثابتة للأعضاء السابقين في الشرطة البريطانية في الهند . وأُعطي المفتاح البريدي للقسم الإيبري (إسبانيا والبرتغال المحايدتين ، وحماية شحنات الحلفاء الهامة في البحر المتوسط والمحيط الأطلسي . وقام بعمله على أكمل وجه ـ باستثناء أمر واحد) .

في عام ١٩٤٣ ، قيل بأنّ ضباط الجيش الألماني وقائد الإستخبارات ـ الأدميرال كاناريس ـ قد فقدوا الثقة بهتلر ومؤيدي نازيته . فكتب رجل يعمل في الـ (إم آي ٦) ورقة إلى فيلبي يقترح فيها الإستفادة من المعارضة لإنهاء الحرب قبل أن تُجْبر ألمانيا على الإستسلام غير المشروط . ولو نجحت تلك الخديعة ، لكان بالإمكان إنقاذه حياة الآلاف من البشر ، ووفرت على أوروبا الشرقية الوقوع تحت السيطرة الروسيّة . لكن فيلبي أبقى الورقة عنده ولم يوصلها إلى رؤسائه ، لأنه كان يعرف بأن روسيا أرادت دمار ألمانيا وتقسيمها حتى لا تعود مصدر تهديد مباشر للإتحاد السوفييتي بعد ذلك .

وعندما سألت مجلة التايمز إذا ما كان باستطاعة فيلبي إعادة جمع عملائهم ، قيل للمراسل بأنّ ذلك مستحيل «لأن عمله آنذاك هام للغاية وهو يقوم به بمقدرة خُرافيّة» حفر فيلبي ، كما بورغيس وماكلين ، عميقاً . ولما اقتربت نهاية الحرب ، وقف الثلاثي على أهبة الإستعداد لإحداث أضرار أكثر خطورة .

ماذا اعتقد جون ، ابن كيم والمولود عام ١٩٤٤ ، عن أبيه ؟ لقد قال بعد زيارته لموسكو بفترة قصيرة ، في عام ١٩٧٥ . «إنَّ أبي يوصف على الدوام تقريباً على أنه خائن ، ومع ذلك لم يكن بأي حال من الأحوال أفّاقاً أو مُرائياً ؛ حتى أنه لم يكن عميلاً مزدوجاً . لقد اتخذ في شبابه قراراً واعياً ، وعَمِل على تحقيقه بعد ذلك . أعتقد بأنّ لديه ولاءاً كبيراً وهذا ما دفعه لأن يحارب ، وغالباً ما كلّفه ذلك من نفسه . قيل بأنّه خان مجموعة من الألبانيين المُبعدين ـ الذين أعيدوا من قبل الغرب وأُنزلوا بالمظلات في ألبانيا عام ١٩٤٩ . ربما كان هذا صحيحاً . إذ لم يكونوا هناك للتنزّه . إن التجسس مهنة قذرة . يتأذى الناس بسببها في الحروب الباردة كما في الحروب المشتعلة» .

فيلبي يعتني بأصدقائه

في شهر آب من عام ١٩٤٥ ، تقدّم القنصل الروسي المعيَّن حديثاً في تركيا إلى الدبلوماسيين البريطانيين عارضاً عليهم اتفاقاً بناء وحيوياً بالنسبة لهم . أراد كونستانتين فولكوف الذي ادعى بأنّه رئيس منطقة في الإستخبارات السوفيتية ٢٧٥٠٠ جنيهاً ومكاناً آمناً في الغرب . وبالمقابل كان مستعد للإفصاح عن كلّ تفاصيل عمليات الجاسوسيّة الروسيّة في تركيا ، بالإضافة لشرح عن كيفية عمل شبكة الجاسوسية في موسكو . وكان سيقوم بتسمية ثلاثة عملاء روس كانوا يعملون في داخل الأجهزة الحكومية البريطانية ، إثنان في وزارة الخارجية وواحد في مكتب مكافحة الجاسوسية . وكانت تلك مسألة يصعب على الدبلوماسيين في اسطنبول معالجتها لوحدهم . وكان عليهم إرسال الطلب إلى لندن . ووافق فولكوف على الإنتظار (٢١) يوماً حتى يتمّ اتخاذ القرار .

بعد عشرين يوماً وصل المندوب الرسمي للإستخبارات البريطانية إلى تركيا . واعتذر كيم فيلبي عن التأخير ، واضعاً اللوم على العطل الرسميّة . وانتظر بضعة أيام ، لكن فولكوف لم يتصل على الإطلاق . وبعد عودة فيلبي إلى لندن بأسابيع ، أصبح سبب سكوت فولكوف واضحاً . إذ هبطت طائرة عسكرية سوفييتية في مطار اسطنبول دون أن يُعلن عنها . واندفعت إليها سيارة عبرت مُدْرج الطيران . وتمَّ رفع شخص ثقيل مربوط ومكمم على ظهر الطائرة محمولاً على نقّالة . وأقلعت الطائرة ثانيةً . تمّت خيانة فولكوف من قبل أحد جواسيس موسكو ، بأنّه كان يسعى لإفشاء الأسرار .

وتلقى الكرملين بسرور نبأ مفاده أن الإستخبارات البريطانية عيّنت دونما فطنة منها فيلبي رئيساً للجاسوسية الموجهة إلى روسيا في عام ١٩٤٤ . ومع نهاية الحرب ، كان لديه أكثر من ١٠٠ شخص يعملون لصالحه . لكنّ خيانته جعلت جهودهم تذهب هباءً . إذ تمّ إلقاء القبض على العملاء البريطانيين الذين أُرسلوا إلى ما وراء السور الحديدي وأُعدموا رمياً بالرصاص . بينما بقي الجواسيس الروس بمنأ في المؤسسات البريطانية .

كان الرجلين العاملين في وزارة الخارجية الذي كان فولكوف سيقوم بفضحهما هما بورغيس وماكلين وكان الأول منهما قد دخل في السلك الدبلوماسي عن طريق قسم الصحافة . وفي عام ١٩٤٦ كان قد أصبح سكرتيراً ومساعداً شخصياً لهكتور ماك نيل ، صديق من أيام عمله في محطة الـ بي بي سي ، والذي أصبح الآن نائباً لسكرتير الخارجيّة . كان بورغيس الذي سَرَّب أسرار توري[1] قبل الحرب ، والذي كان صديقاً حميماً لحزب العمال الجديد . كما رافق ماك نيل في زيارات رسميّة إلى باريس وبروسلز ، فكان دعمه في قنصليات وزارات الخارجية ، وحصل على ثقة رجال مجلس الوزراء .

كان موقف ماكلين أفضل من صاحبه ، ففي عام ١٩٤٤ ، تمَّ تعيينه رئيساً لمحكمة العدل في سفارة بريطانيا في واشنطن عاصمة الولايات المتحدة الأمريكية . فمرّت اتصالات سرية بين رئيس الوزراء تشرتشل والرئيس روزفلت وترومان من على مكتبه ، وفيها تفاصيل عن تكتيك الحرب ، وفيما بعد الأعمال البريّة لحلف شمال الأطلسي (الناتو) . واعتباراً من شهر شباط ١٩٤٧ ، كان ماكلين سكرتيراً للجنة السياسية المشتركة التي كانت تتعامل مع تصنيف المعلومات الواردة عن القنبلة الذرية الواردة من أمريكا وبريطانيا وكندا . فعرف من كان يصنعها وكيف وأين ، وكمية اليورانيوم التي كان الحلفاء يشترونها .

كان لدى الروس علماء يتجسسون لصالحهم ، أحدهم ألان نان ماي الذي سنأتي على ذكره لاحقاً ـ كان أحد المعاصرين لماكلين في جامعة كامبريدج . ومما أخبرهم به الدبلوماسي ، استطاعوا معرفة العدد الدقيق للقنابل التي كانت تُصنع في الفرن . وكان لماكلين ميزة أخرى ، إذ أُعطي جواز مرور دائم سمح له بالدخول إلى هيئة الطاقة الذرية في الولايات المتحدة ، وكان ذلك يعتبر أفضلية ،

(١)- توري يعني اسم عضو في حزب المحافظين البريطاني .

حتى قائد الطاقة الذريّة الأمريكية تذمَّر منها .

أظهر كل من بورغيس وماكلين بوادر نبوغ في وسط قحط حياتهم المزدوجة . كان انغماسهم في شرب المسكرات يزداد باطراد ، ويلقون بتعليقات لا واعية جارحة للغاية عن أنفسهم وعن السياسة البريطانية . وبدلاً من طردهم ، أعطتهم وزارة الخارجية فرصاً أخرى . فعندما أصبح موقف ماكلين المعادي للأمريكيين لا يحتمل في واشنطن ، تمَّت ترقيته ، إلى وظيفة أعلى في القاهرة ، حيث كان لديه هناك محور الإتصالات الهامة من سفارات الإتصال في جميع أنحاء العالم . وعندما أصبح تناوله للخمور هناك لا عذر له يمكن قبوله ـ ألقت الشرطة المصرية القبض عليه ، وأعيد إلى لندن ؛ حيث أُعطي فترة ستة أشهر للاستجمام . ثمَّ تمَّ تعيينه رئيساً للمكتب الأمريكي في وزارة الخارجيّة ، مما أتاح له الفرصة بأن يُطلع موسكو على قرارات أمريكا الحاسمة لِلْحَد من التورط في الحرب الكوريّة .

وعاش بورغيس بدوره حياة حافلة . إذ تمَّ إبعاده عن عمليات الدعاية في الشرق الأقصى لكونه «قذراً وسكيراً ولا نفع يُرجى منه» ، وتمَّ وضعه في مصح غيبرولتار بعد سقوطه في مطعم ـ حيث أهان وجرح مشاعر دبلوماسيين وسُيّاح بانفجاره بالحديث غير المهذب عن الشذوذ الجنسي والسياسة . وكما في قضيّة ماكلين ، فإنَّ التصرف الصبياني كان يُعاقب فقط بتغيير مكان الأحداث . فأُرسل بورغيس إلى واشنطن كسكرتير أول في شهر آب من عام ١٩٥٠ . كان تعيينه في هذا المنصب مأساوياً للعلاقات الإنكليزية الأمريكية . كما تسبب هذا التعيين بمشاكل أخرى لكيم فيلبي وللروس .

اعترف أحد المعاصرين لغاي بورغيس في جامعة كامبريدج لمراسلي صحيفة الديلي مايل في عام ١٩٧٩ ، بأنَّه قام بتنظيم جماعة سريّة في منطقة بليتشلي في بيكنغهامشاير خلال الحرب العالمية الثانية ـ عندما كان يعمل لدى وزارة التموين على خطط التغذية في حالات الطوارىء .

قال : «كان عليَّ أن أبقى في الخنادق لأكون جاهزاً لتنظيم المقاومة إذا ما قام الألمان بالغزو . وتمكنَّت من جمع كميّة كبيرة من المعلومات المفيدة . كان أحد المصادر التي استخدمتها رفيقاً كان يعمل في القطارات كجامع تذاكر ، اعتاد أثناء تجواله على استراق السمع لمحادثات الفتيات الذاهبات الى منازلهن بعد انتهائهنّ من أعمال الحرب ـ فقد اعتادوا على التكلّم بحريّة نوعاً ما ؛ والتقط هو المعلومات» .

كان يجب أن تصل الملفات الرسمية ، عن تخلي بورغيس وماكلين عن بلدهما وانضمامهما لموسكو ، إلى الرأي العام في أواخر عام ١٩٨١ ضمن الـ ٣٠ عاماً من الحُكم على الوثائق التاريخيّة . لكنّ حكومة السيدة تاتشر أبقت أمرهم سراً . وعلّق عضو البرلمان العمالي ستانلي نيوينز : «أشُكُّ بأنّ تفاصيل التحقيق في تلك الخيانة قد يكون محرجاً لأناس ما زالوا على قيد الحياة . ويوجد أيضاً أناس ماتوا لكنّ سمعتهم يمكن أن يعاد النظر في أمرها إذا تمّ نشر تلك الوثائق .

عاد مالكولم موغريدج ـ الشخصية التلفزيونية التي كانت تعمل لصالح فيلبي خلال خدماته في أوقات الحرب كعميل للإستخبارات البريطانية ـ بذاكرته لسنوات خلت : «كنت دائماً أسرّ لرؤيته ، وأستمتع برفقته» . ففي إحدى المرات عندما كانا مخمورين تماماً بعد عشاء جيّد في باريس تمشيا أمام السفارة السوفييتية في شارع الغرونيل ، يتناقشان في كيفيّة اقتحامهما لها . كما قابل موغيريدج بورغيس في شقته بشارع بينتينك في لندن . وكان آنئذ مع بلانت ، وشعر موغيريدج بنفور على الفور من مؤرخ الفن لاهتمامه المضحك بتوافه الأمور وشذوذه الجنسي الغريب . وقال : «إنّه أمر غير عادي لخبير فن عبقري كبلانت أن يكون عبداً موالياً ، إلى حدّ خيانة بلده ، إلى أكثر الحكومات تشدداً التي وجدت على الإطلاق» .

قبل عام من تلك الأحداث ، كان فيلبي قد وصل إلى مركز مرموق في مهنة الجاسوسية بشكل رسمي وغير رسمي . فلحق ببورغيس إلى واشنطن ، كرجل اتصال بين الإستخبارات البريطانيّة (إم . آي . ٦) والإستخبارات المركزيّة الأمريكية (سي أي إيه) لم تكن لدى العملاء الأمريكيين الذين تعلموا احترام فيلبي كزميل جامعي في لندن خلال الحرب أي اعتراض حول إطلاعه على العمليات السريّة . كما أطلعه مدير الإستخبارات المركزيّة الأمريكية ـ بيدل سميث ـ شخصياً على تلك العمليات . وتظاهر فيلبي بالحيرة كالأمريكيين عندما فشلت سلسلة من العمليات الكبرى .

وشنّ العميلين محاولة جادّة لقمع ثورة اندلعت في ألبانيا التي كانت تحت سيطرة روسيا في عام ١٩٤٩ . وعرض الملك المُبعد زوغ حارساً ملكيّاً ومتطوعين آخرين كمحاربي إغارة . لكن على مدى ثلاث سنوات ، انتهت كل محاولة ، لتسليل رجال إلى ألمانيا عن طريق القوات البحريّة أو الباراشوت ، بمأساة .

كان الروس بالإنتظار وقد نصبوا الكمائن . كما عرفوا أيضاً إشارة الطوارىء التي أُرسلت بالراديو عندما حاول أحد الألبانيين إيقاف إحدى الفرق اللاحقة من الوقوع في الفخ . وكلّفت تلك العملية الألبانيين ٣٠٠ قتيل .

وحصل نفس الشيء عندما حاولت الإستخبارات المركزيّة الأمريكية بالتعاون مع الإستخبارات البريطانية الوصول الى الأوكرانيين المُبعدين ـ لتهريب الأسلحة الى الاوكرانيين الملاحقين من السوفييت ، وتسريب المعلومات من هناك . فبدأت القوافل بالإختفاء دون أن تترك أثراً ، وأصبحت المعلومات المُسربة مجرّد دعاية روسية . وبعد كارثتين ، تابع البريطانيون والأمريكان حربهم بخجل للتسلل ثانية خلف الستار الحديدي .

لم يكن فيلبي يخون عمليات التسلل وعملاء الإستخبارات المركزية الأمريكيّة في جميع أنحاء العالم فحسب ، فقد كان باستطاعته أيضاً إيصال الأخبار الى موسكو عن مدى معرفة الإستخبارات المركزية الأمريكية عن عمليات السوفييت . وبحلول عام ١٩٤٩ ، اعتقد رجال الإستخبارات المركزية الأمريكية بأنهم عرفوا الكثير . ففي عملية جريئة لاختراق شيفرة سريّة ، طُبعت رسائل الروس التي تناقلوها أثناء الحرب ؛ عندما تناقلوا المعلومات عن الألمان واليابانيين ؛ وتمّ حل رموز الشيفرة أخيراً . وتمّ اكتشاف فوخس وهاري غولد ، جاسوسي القنبلة الذرية اللذان سنأتي على أعمالهما لاحقاً ، بعد كشف الشيفرة الروسية ، رغم أن الإستخبارات المركزية الأمريكية اخترعت ، أو لمحت بـ ،أساليب متناوبة من التحري في محاولة منها لإبقاء مأثرة الشيفرة التي قاموا بها سِرّاً .

طلب الروس من فيلبي أن لا يُبقي الجواسيس الذين قاموا بالمهام المطلوبة منهم . لكنّه أبقى مراسلاً يدعى برونو بونتيكورفو ـ عالم ذرّة إيطالي الأصل انضمّ فيما بعد للإتحاد السوفييتي . كما قام بحماية جاسوس سياسي رفيع المستوى اسمه الحركي هوميروس . وكان من المفترض بفيلبي أن يُساعد على الإيقاع به من بين ٧٠٠ مشتبه . لكنّه عرف من البداية أنه كان ـ دونالد ماكلين .

عندما وصل غاي بورغيس إلى واشنطن ، كان أشعثاً ولا يمكن الإعتماد عليه وغير مناسب للسلك الدبلوماسي ، فأخذه فيلبي إلى منزله ، ولشدة الغرابة أبقاه عنده حوالي عامٍ كامل . وكانت تلك غلطة منه كلّفته تقريباً فقدان مهنته ـ عندما طلب من بورغيس أن ينقل رسالة شفهية في شباط من عام ١٩٥١ .

عَرَف فيلبي بأنّ الشبكة كانت تُطبق على ماكلين في لندن ، إذ أصبح أحد أربعة من المشتبه بكونهم هوميروس . لكنّ الروس لم يكونوا ليسمحوا باعتقاله ،

فقد ينهار ويعرّض للخطر شبكة الجاسوسية التي تمَّ بناؤها بعناية إلى مدى أكثر من عشرين عاماً . كما كان ضرورياً للروس أن يثبتوا لعملائهم أنّ الجاسوس الذي يقع في المشاكل يمكنه أن يعتمد على مساعدة موسكو له . وكان على ماكلين أن يُزاح عن طريق المخاطر التي قد تواجهه .

بورغيس كان صديقاً يمكن أن يثق به ماكلين . وبرغم رداءة سمعته لغرابة أطواره ، لم يشتبهوا بأنه يعمل بالتجسس . كانت أمريكا سعيدة فقط لدى عودة بورغيس ـ الذي لم يَعُد مجُونُهُ مزاحاً بعد الآن . ولتأكيد سبب معقول لمغادرته ، فقد ذهب بورغيس بسيارته إلى فيرجينيا حيث تمَّ إيقافه ثلاثة مرات بسبب السرعة . وكان معه في السيارة شخص معروف جيداً بشذوذه الجنسي ، مما أثار حنق الأمريكيين عليه أكثر . وعاد بورغيس إلى بريطانيا على الباخرة «الملكة ماري» .

اتصل بماكلين في أوائل شهر أيار وأصبح الإثنان على علم بتحركات رجال مكافحة الجاسوسية في الـ(إم آي ٥) أثناء تعقبهم لماكلين . لكن بدا لهما أنه ليس هناك من داعٍ للإسراع بالرحيل . وعاد بورغيس للانغماس في دوامته الاجتماعية ، بينما تابع ماكلين تزويد الروس بآخر الأخبار السياسية من المكتب الأمريكي في وايتهول . وفي صباح يوم الجمعة ٢٥ أيار ١٩٥١ ، وقّع سكرتير الشؤون الخارجية ، هيربرت موريسون ، ورقة يفوض فيها باستجواب ماكلين .

كان يوم الجمعة المحتوم يوافق عيد ميلاد ماكلين الـ ٣٨ ، وسمح لنفسه بتناول وجبة غداء في وقت فراغه مع أصدقائه أثناء يوم عمل مكتبي روتيني . لكن لم يكن لدى بورغيس وقت ليرتاح إذ تم استدعاؤه للإستجواب خلال دقائق قليلة من توقيع التفويض المذكور أعلاه . وبعجلة ، طلب من صديق له بأن يلغي قيامه برحلة كان مقرراً أن يقوم بها إلى القارة القطبية . في الحقيقة احتاج لتذكرة الصديق لماكلين . جمع حقائبه ، واستأجر سيارة ، وقادها الى منزل ماكلين في كِنْت ؛ ووصل مع عودة ماكلين من مكتبه . تناولا وجبة الطعام معاً بحضور زوجة ماكلين ميليندا . ثم ذهبا إلى ساوثهامبتون . ولما صعدوا المركب رقم ٣٢٠٠ المتجه إلى أوروبا ، تذكّر أحدهم بأن عليه أن يعود الى الطبيب يوم الإثنين ، لكنّ بورغيس . وماكلين لم يطؤا أرض بريطانيا بعدها أبداً .

واحتار الرأي العام من اختفاء الدبلوماسيين . ولم يكن هناك ذكر للجاسوسية

منذ سنوات ، وحتى عندما ظهرا أخيراً في الإتحاد السوفييتي عام ١٩٥٦ ، ادعى كلاهما بأنهما لم يكونا جاسوسين ، بل مجرَّد محبي سلام ، بهرهما الغرب .

لكنَّ السر الأغرب كان لماذا هرب بورغيس مع ماكلين ، ورغم أنّ فيلبي قال له بأن لا يهرب ، إذ لاحظ أنّ اختفاءه يمكن أن يركز الشك على أصدقائه ، خصوصاً الأصدقاء الذين شاركهم منزلهم في واشنطن . فهل اكتفى ؛ لعلمه بأن عمله في وزارة الخارجيّة قد انتهى ؟ أو هل انهار من تأثير تناوله للمسكرات ، ومن حياته المزدوجة ؟ أو هل رفض ماكلين الذهاب وحده إلى بلاد باردةٍ موحشة حيث لا يعرف أحداً ؟ أم هل اعتقد الروس بأنّ ماكلين لم يكن يستطيع قطع الرحلة بمفرده ؟ لم يجد الغرب حتى الآن جواباً مُقنعاً .

ساعد بورغيس الروس على الحصول على الأخبار السياسية البريطانيّة وتمّ إعطاء ماكلين عملاً مكتبيّاً في وزارة الخارجيّة السوفييتية . لكن لم يكن أيّ منهما سعيداً في بلده الجديد . مات بورغيس حزيناً يائساً يَشْعر بشوقٍ وحنين لوطنه في عام ١٩٦٣ ، عندما قضى عليه سكره وعربدته .

بينما قضى ماكلين ، الذي فقد زوجته التي تزوجها كيم فيلبي ، نحبه في عام ١٩٨٣ . كان وضعه كجاسوس من الطراز الأول قد تأكد منذ عام ١٩٥٦ ، عندما قالت وكالة الإستخبارات المركزيّة الأمريكية بأنها حاولت جاهدة اختطافه لمعرفة الأسرار التي قام بخيانتها بالضبط .

في أثناء ذلك ، وفي حزيران من عام ١٩٥١ ، كان الرجل الثالث الذي خَلَّفاه وراءهما يُحارب لإبقاء حياته الجاسوسيّة . .

هروب فيلبي حفظ ماء الوجه للبريطانيين :

كما توقع فيلبي والإستخبارات الروسية ، فقد اشتُبه به فوراً بأنّه ساعد بورغيس وماكلين على الهرب ـ إذ كان أحد الذين لهم علاقة بكلا الرجلين ، كما كان مطلعاً على أسرار ماكلين التجسسية ، واستضاف بورغيس لفترة عنده . كانت موسكو تراهن على قدرة فيلبي بالتنصل من الإتهامات ، واستطاع فيلبي النجاة من هذا المأزق بطريقة أذهلت الروس أنفسهم .

استدعى رئيس الإستخبارات البريطانية (السير ستيوارت مينزيز) فيلبي إلى لندن لتصفية أجواء المواجهة وليَمْثل أمام القضاء . ولم يصدّق العديد من زملاء فيلبي أن هدوءه واتزانه يخفي جاسوساً لموسكو ، لكنّ رؤساء شبكة مكافحة الجاسوسية العسكرية البريطانية (إم اي ٥) لم يخامرهم الشك حول ذلك ؛ إذ كانوا يعيدون تقييم أعمال فيلبي ويوجهون له أسئلة مُربكة ، خصوصاً حول حادثة فولكوف . وكان رؤساء الإستخبارات المركزيّة الأمريكية متأكدين أيضاً من إدانته وضلوعه بالتجسس ، فقالوا لمينزيز : «إذا لم تقم بطرد فيلبي فإننا سنوقف التعاون بين جهازي الإستخبارات الأمريكية والبريطانية» .

لم يذهب فيلبي إلى منزله ذلك اليوم ، لكنه رفض أيضاً إغراءالهروب إلى روسيا . أراد أن يعرف بذكائه وبرودة أعصابه كمية المعلومات التي عرفها عنه رؤساؤه . قدّم استقالته من عمله في وزارة الخارجيّة ـ بتعويض قدره ٤٠٠ جنيه ـ ولم يعد بعد تقديم استقالته قادراً على السفر للخارج بالحماية الدبلوماسية ،لكنه لم يكن بعيداً عن حماية أخرى .

في حزيران من عام ١٩٥٢ ، تمخضت ضغوط الإستخبارات البريطانية عن «محاكمة سريّة» لفيلبي . فاستجوب هيلينوس ميلمو (عميل سري سابق أصبح فيما بعد قاضياً) بقسوة فيلبي حول ماضيه أمام هيئة المحلفين لمدة ثلاثة أيام كاملة . تذرع فيلبي بتعلثمه فأوقع الفوضى في نظام الإستجواب ، وأعطاه ذلك وقتاً كافياً للتفكير ، وأنكر كل الإتهامات التي وجهت إليه ، بينما كان يحلّل في الوقت ذاته مدى معرفة المحقق . وتوضح له في وقت قصير أن جهاز مكافحة الجاسوسية العسكرية البريطانية (إم أي ٥) لم يكن لديهم سوى قرائن لا يمكن أن تأخذ المحكمة بها دون اعتراف منه . ولم يكن فيلبي على استعداد للإدلاء باعتراف كهذا ، وانتهت المحاكمة دون أن تُحسم القضيّة .

ورد ذِكْر فيلبي مرة كمدير مرتقب للإستخبارات البريطانية العسكرية (إم . اي ٦) خلال فترة نشاطه في واشنطن . لكنه حاول ، بعد تلك الأحداث ، أن يجد عملاً أقلّ أهمية . فذهب إلى اسبانيا ليعمل هناك كمراسل لصحيفة الأوبزرفر ، كما عمل لفترة في مدينة لندن ـ حتى أنه أصبح بائع فراشي أسنان متجول . ومن المحتمل أنه قد عمل لدى الإستخبارات البريطانية من آن لآخر . كما شوهد في

قبرص ، يتحدث مع الأرمنيين المبعدين عن بلادهم . وشاهده بعض العلماء في منطقة منعزلة على الحدود الروسية التركية . ومدّ له أصدقاؤه في العمل يد المساعدة عندما شارف على الإفلاس ، حتى أنهم دفعوا الأقساط المدرسية لبعض أولاده الخمسة من زوجته الثانية إيلين . لكنّه لم يسع للعودة إلى عمله السابق ، وبدا كأنه ينتظر حدوث شيء ما . وفي أيلول من عام ١٩٥٥ ، حدث ما كان ينتظره .

بعد أمد طويل ، نشرت الحكومة عفواً عن حادث اختفاء بورغيس وماكلين بتقرير رسمي ـ تألف من ٤٠٠٠ كلمة مضللة لإخفاء الحقيقة . واعتبرها أحد أعضاء البرلمان كـ «إهانة لاستخبارات البلاد» . وغضب رجل يعمل في مكتب مكافحة الجاسوسية العسكرية في بريطانيا (إم . اي ٦) عندما حُذف اسم فيلبي ، وقرر أن يُظهر الحقائق بطريقة أخرى . لم يكن أَحد يجرؤ على دعوة فيلبي بالجاسوس دون أن يتلقى حكماً بالتشهير . لكنّ تقارير مجلس العموم تضمنت ذلك بشكل مخفي ، مما سمح للصحف بالكتابة عنهم ، مما أتاح الإشارة إليه بشكل ما . واستفاد الصحفيون من أقوال أحد رجال مكتب مكافحة الجاسوسية وعضو البرلمان السابق ماركوس ليبتون ، عندما سأل رئيس جزب المحافظين البريطاني السير أنطوني ايدن قائلاً : «هل قررت تغطية نشاطات الرجل الثالث السيد هارولد فيلبي ، الذي كان السكرتير الأول في سفارتنا بواشنطن ؟» . وهكذا تأكدت علاقة فيلبي بالهاربين . وأثار الرأي العام في اليوم التالي نزاعاً برلمانياً لا يمكن السكوت عنه .

وادعى فيلبي فيما بعد أنه كان «أَسْعَدُ يوم في حياته» عندما وجه ليبتون سؤاله . وفي خضمّ النزاع الذي نشب في ٧ تشرين الثاني ، قال وزير الخارجية هارولد ماكميلان ـ المسؤول الأول عن أعمال جهاز الإستخبارات البريطانية العسكرية (إم . اي ٦) موجّها خطابه لأعضاء البرلمان : «ليس لدي أيّ سبب يدعوني للقول بأنّ السيد فيلبي قد خان مصالح بلاده في أي وقت من الأوقات ، أو تقديمه على أنه الرجل الثالث المزعوم ـ هذا لو كان يوجد شخص ثالث أساساً .

ولما عرف فيلبي بأنّ تزكية رسمية كهذه جعلت إعادة توجيه ليبتون اتهامات ضدّه أمراً لا تؤمن عواقبه ، عقد فيلبي مؤتمراً صحفياً بعد ثلاثة أيام ، وصوّر نفسه من خلاله بشكل الرجل البريء تماماً ، والذي فقد مهنته بسبب صداقة لا واعية مع

بورغيس السيء السمعة . حتى ماكميلان نفسه كان يعرف بأن ما قيل هو كذب واضح ، لكنه كان منصفاً لفيلبي في البرلمان لأنه عرف صعوبة إثبات إدانته . لكنّه أصدر أوامره إلى الإستخبارات البريطانية العسكرية بأن لا يعودوا لاستخدام فيلبي كعميل لهم مرة أخرى ؛ وبغرابة شديدة تجاهلوا تلك الأوامر ـ إما بدافع الولاء غير المنطقي لصديق ، أو لإبقائه في مكان يسهل مراقبته فيه . أرسل مكتب الإستخبارات البريطانية فيلبي إلى بيروت .

كان فيلبي يستخدم وظيفة مراسل أجنبي لصحيفتي «الأوبزرفر» و«الإيكونومست» كغطاء لعمله ، ويسجل روايات مؤثرة من عاصمة لبنان . لكنّ الإستخبارات المركزيّة الأمريكية كانت تراقب كل تحركاته . إذ كان يتنقّل في مناطق أبعد من تلك التي كتب عنها في مقالاته الصحفيّة .

وفي عام ١٩٦٢ ، بدّدت الوكالة الأمريكية شكوك الإستخبارات البريطانية المعلّقة حول إدانة فيلبي ، إذ أرسل جهاز الإستخبارات المركزيّة الأمريكية معلومات مفصلة عن أحد المنشقّين الروس ، ويدعى أناتولي غوليتسين ، حيث قال بأن فيلبي هو الرجل الذي حذّر بورغيس وماكلين ـ وبأنه كان منظم عمليات الإستخبارات الروسية في الدول العربيّة في أواخر الخمسينات . وفي نفس الوقت تقريباً ، أخبرت إحدى صديقات زوجته الثانية الإستخبارات العسكرية البريطانية بأن فيلبي اعترف بكونه عميلاً سوفييتياً منذ أمدٍ بعيد .

وقرر السير ديك وايت ، رئيس الإستخبارات العسكرية البريطانية (إم . اي ٦) منذ عام ١٩٥٦ ، أن يُرسل أحد عملائه ـ نيكولاس إليوت ـ ليواجه فيلبي في بيروت ، لكنّه اتفق مسبقاً مع الجنرال السير جون هولبسون ـ المسؤول الأول في وزارة العدل ـ بأن يعرض على الجاسوس حصانة من الملاحقة القضائية مقابل اعتراف كامل منه .

وصل إليوت إلى لبنان في أوائل شهر كانون الأول من عام ١٩٦٣ ـ وحسب رأي خبير الجاسوسة تشابمان بينشر في كتابه «الخيانة تجارتهم» فإن الإستخبارات الروسية كانت وراءه . وحذّر يوري مودين ـ الروسي الذي تابع بورغيس وماكلين في لندن ودبر عملية هروبهما ـ فيلبي من زيارة إليوت ، وجهز له خطة للهروب . ولم يكن باستطاعة فيلبي أن يخطىء أمام المحقق ، إذ قد يُعرّض المصدر الذي أخبر الروس عن ذلك للخطر بزلة لسان منه .

قابل الكاتب غورنوي ريس ـ ضابط الإستخبارات العسكرية خلال الحرب العالمية الثانية ـ كيم فيلبي ، وقال عنه : «كان طبعه يتسم بالقسوة والسادية والوحشية التي كانت تظهر من حين لآخر من تحت القناع الذي رسمه لنفسه . وهذا يجعل المرء يشكُّ بأنّه كان يستمتع بحياته المليئة بالخيانة والغدر» .

لدى تفتيش الإستخبارات البريطانية لشقة غاي بورغيس ، وجدوا أوراقاً أدت الى الكشف عن جاسوس في وزارة المالية البريطانية . لكن الرأي العام لم يعلم قبل كانون الأول ١٩٧٩ عن جون كايرنكروس الذي تجسَّس لصالح روسيا بعد أن تمّ تجنيده في الحزب الشيوعي من قبل أستاذه في كامبريدج ، أنتوني بلانت ، خلال الثلاثينات من هذا القرن . وادعى كايرنكروس بأنّه «أطلع بورغيس فقط على بعض الملاحظات التي كتبها ، وملخصات لنقاشات عامة وأشياء أخرى من هذا القبيل» . وفي الحقيقة ، فقد كانت تلك الأوراق تقارير شاملة عن موقف بريطانيا من هتلر ، وآراء عن احتمال قيام الحرب مع ألمانيا ـ أي معلومات حاسمة أدت إلى توقيع اتفاق هدنة لمدة عامين بين روسيا والنازيين في عام ١٩٣٩ . ولما كُشف النقاب عنها في عام ١٩٥٢ ، تم إرسال كايرنكروس إلى المنفى في روما ، ليعمل لدى منظمة الأمم المتحدة للأغذية والزراعة .

أغرق فيلبي نفسه في شرب الخمور أكثر من المعتاد قبل أسبوع من وصول إليوت ، لكنه كان متمالكاً لنفسه عندما قابل صديقه القديم ، وقال له : «كنت أتوقع رؤيتك مسبقاً» . وأخبر إليوت فيلبي بأن دليلاً جديداً ضده قد ظهر . وحسبما قال بينشر ، بدأ فيلبي عندئذ اعترافاً حذراً ، دون أن يسأ ل حتى عن ماهية الدليل الجديد .

قال بأن الروس قد جنّدوه في صفوفهم عندما كان في فيينا في عام ١٩٣٤ ، ووشى بفولكوف وبعمليات الالبانيين والأوكرانين ، وأرسل بورغيس لتحذير فولكوف . وكما قال بينشر فقد كانت هنالك أعمالاً أخرى أشير إليها كاجراءات قامت بها الإستخبارات الروسية لحماية الجواسيس السوفييت الآخرين في بريطانيا . ووقع فيلبي على محضر اعترافاته الذي تكوّن من صفحتين مطبوعتين ، وعاد إليوت بعدها بالطائرة إلى أمريكا ليتباحث مع الإستخبارات المركزيّة الأمريكية بشأن هذه الإعترافات .

بعد عشرة أيام من اعترافه ، كان فيلبي ذاهباً إلى حفلة عشاء مع إحدى صديقاته عندما أوقف التاكسي ، ونزل معتذراً بأنّ عليه إرسال برقية إلى لندن ومن ثم سيلحق بها في الحفلة . واختفى بعدها ستة أشهر ، ثم ظهر بعد ذلك في

موسكو . وكما بورغيس وماكلين ، فقد ترك وراءه الكثير من التساؤلات دون إجابة .

عرف الروس بأنّ الإستخبارات العسكرية البريطانية (إم . اي ٦) كانت تخطط لإعادة فيلبي إلى لندن ليقوموا باستجوابه بدقة . وهل يمكن أن يدعوه يعترف ، وقد أدركوا أنه بدأ يحسّ بأن حياته التي أمضى منها حوالي ٣٠ عاماً في الجاسوسية قد بدأت تنهار ؟ أو هل دبروا هروبه لأنه كان أكثر نفعاً في موسكو منه مع الإستخبارات العسكرية البريطانية بعدما كشفت تلاعبه ؟ أم عرفوا أيضاً بأن الإستخبارات المركزيّة الأمريكية ـ بعد معرفتهم أخيراً بأبعاد خيانة فيلبي ـ قد أرسلوا فريقاً إلى لبنان لاغتياله ؟ أو هل ساعدت الإستخبارات العسكرية البريطانية على هربه بإرهابها فيلبي مما دفعه للقيام بذلك ؟

مع حلول عام ١٩٦٣ ، كان من دواعي سرور الحكومة التي أحرجها فيض محاكمات الجواسيس (التي سنأتي على ذكرها لاحقاً في هذا الكتاب) التنبه لأعمال شخص آخر يندى لها الجبين . ولم يكن لدى الإستخبارات العسكرية البريطانية (إم . اي ٦) أي تبرير تبديه للرأي العام عن سبب الإنتهاك الصارخ للأنظمة والقوانين ؛ وإبقاء عميل روسي مشتبه بأمره في عمله لمدة ١٢ عاماً .

قال فيلبي لدى وصوله إلى روسيا بأنه قد «أتى الى بلاده» ، واستقر بعد فترة وجيزة في عمله الجديد كضابط مساعد في مقر جهاز الإستخبارات الروسية في ساحة دزيرتز هينسكي ٢ بموسكو ـ وتم إعطاؤه الراية الحمراء والجنسية الروسية ، تعرف أثناء ذلك على ميليندا ماكلين ، التي تبعت زوجها دونالد إلى المنفى ، لكنه تنصل من علاقته بها أيضاً ، وتزوّج من فتاة روسية . وكان اتصاله الوحيد ببريطانية عبر النسخة اليومية من جريدة التايمز ـ بامتياز خاص من الكريملين ، ليتمكن من الإطلاع على نتائج لعبة الكريكت في بريطانيا . واكتشفت وكالات الإستخبارات الغربية صلته بالتخطيط لبعض أعمال الإستخبارات الروسية ؛ ولعل أبرزها محاولة سرقة أسرار حلف شمال الأطلسي في عام ١٩٦٨ . وفي عام ١٩٧٩ شوهد في إحدى عواصم الشرق الأوسط ـ وكانت تلك أول رحلة له خارج الإتحاد السوفييتي خلال ١٦ عاماً .

ما الذي دفع فيلبي للعمل في مهنة حتّمت في أوجها على كل مهمة

جاسوسية في الغرب بالإنتهاء من قبل أن تبدأ ، سواء أكانت دفاعية أو هجومية ؟ هل كانت حياته اقتناعاً شيوعياً راسخاً لم يمنعه رغم ذلك من الإستمتاع بثمار المجتمع الرأسمالي ؟ أم هل كانت رغبة منه بالمغامرة التي ورثها عن والده ؟ لم يستقر الخبراء على رأي بعد .

لفّ الغموض حياة فيلبي الذي قال ذات مرة : «حسب معرفتي وإدراكي للأعمال التي قمت بها ، فأنا لم يكن بمقدوري القيام بأعمال أخرى غيرها» . وثأرت المؤسسة من الشخص الذي اطلع على أسرارها وخان ثقتها ، وشطبت اسمه من قائمة العضوية في مجمع النادي الأدبي في لندن . لكنها لم تلاحظ ـ خلال ٤٤ عاماً ـ أنها كانت تؤوي جاسوساً روسياً آخر وصل إلى مراكز أعلى بدرجات من سابقه . .

أنطوني بلانت : خائن عمل لدى الملكة

انضم أنطوني بلانت لجواسيس «حلقة كامبريدج» قبل دونالد ماكلين . وأعاد غاي بورغيس ، بتوصية من كيم فيلبي ، تجنيد صديقه الشاذ جنسياً في عام ١٩٣٥ . لكن النقاب لم يُكشف عن خيانته حتى عام ١٩٧٩ ـ عندما فضحت رئيسة الوزراء مارغريت تاتشر خيانته للرأي العام ـ رغم أنّه اعترف قبل ١٥ عاماً للسلطات المختصة بأنه عمل في مجال الجاسوسية . فبعد ثبوت خيانته لقوات جلالتها خلال الحرب العالمية الثانية ، عاد فعمل لديها بعد ذلك . وقام في عام ١٩٤٦ بمهمة حساسة وسريّة للغاية في ألمانيا ، ليُجنب العائلة الملكية من موقف حرج . التحق بلانت بجامعة ترينيتي ، لينضم إلى أصدقائه من العملاء السوفييت ، في عام ١٩٢٦ .

أثبت ابن رجل الدين اللندني تفوقاً في دراسته فعرضت عليه بعثة تدريسية . وكان ما يزال طالباً عندما وصل بورغيس إلى ترينيتي . وأصبح الإثنان صديقين حميمين خلال وقت قصير ، ووافق بلانت على اقتراح بورغيس بأن ينضم للعمل لحساب الروس في محاربة توسع النازيّة . وعندما صدرت الأوامر لبورغيس بالتوجه الى لندن ، حل بلانت محلّه وصار يتصيد التلاميذ الأذكياء ويقنعهم بأن يعملوا لصالح تلك القضية .

ـ الحرس الملكي في بريطانيا

وفي عام ١٩٣٩ ، كان بلانت يعمل في لندن كنائب مدير معهد كورتولد للفنون ، وتطوّع عندما اندلعت الحرب في سلك الإستخبارات العسكريّة . ولكنّ طلبه رفض بسبب ماضيه الماركسي . ولشدّة الدهشة فقد قبل طلبه من قبل جهاز مكافحة الجاسوسية العسكرية في بريطانيا (إم اي ٥) بتوصية من زميل له في الفنون . وقام خلال الخمسة سنوات التي تلت تعيينه بإفشال عملية مكافحة الجاسوسية التابعة للإستخبارات البريطانية بنفس الفاعلية التي كان كيم فيلبي بموجبها يُبطل جهود الإستخبارات العسكريّة البريطانية (إم اي ٦) خارج البلاد ـ فغافل بلانت بذلك ملاحقي الجواسيس وضللهم .

كان أحد أعماله في البداية إخبار موسكو عن أن أحدهم كان يسرب معلومات من مكتب عضو الحزب الشيوعي أناستاس ميكويان إلى جهاز مكافحة الجاسوسية العسكرية في بريطانيا (إم اي ٥) . فتوقفت المعلومات التي كان يرسلها على الفور . ومن ثم كشف بلانت عن أن مكتب مكافحة الجاسوسية العسكرية (إم اي ٥) قد قام بالتجسس على مقر الحزب الشيوعي البريطاني ، وأطلع الروس على أسماء جميع ضباط وكالة مكافحة الجاسوسية العسكرية (إم اي ٥) والمهام الموكلة لكلّ منهم ـ حتى أنه كان مسؤولاً عن تنظيم جداول مهام المراقبة المُناطة بهم ، مما

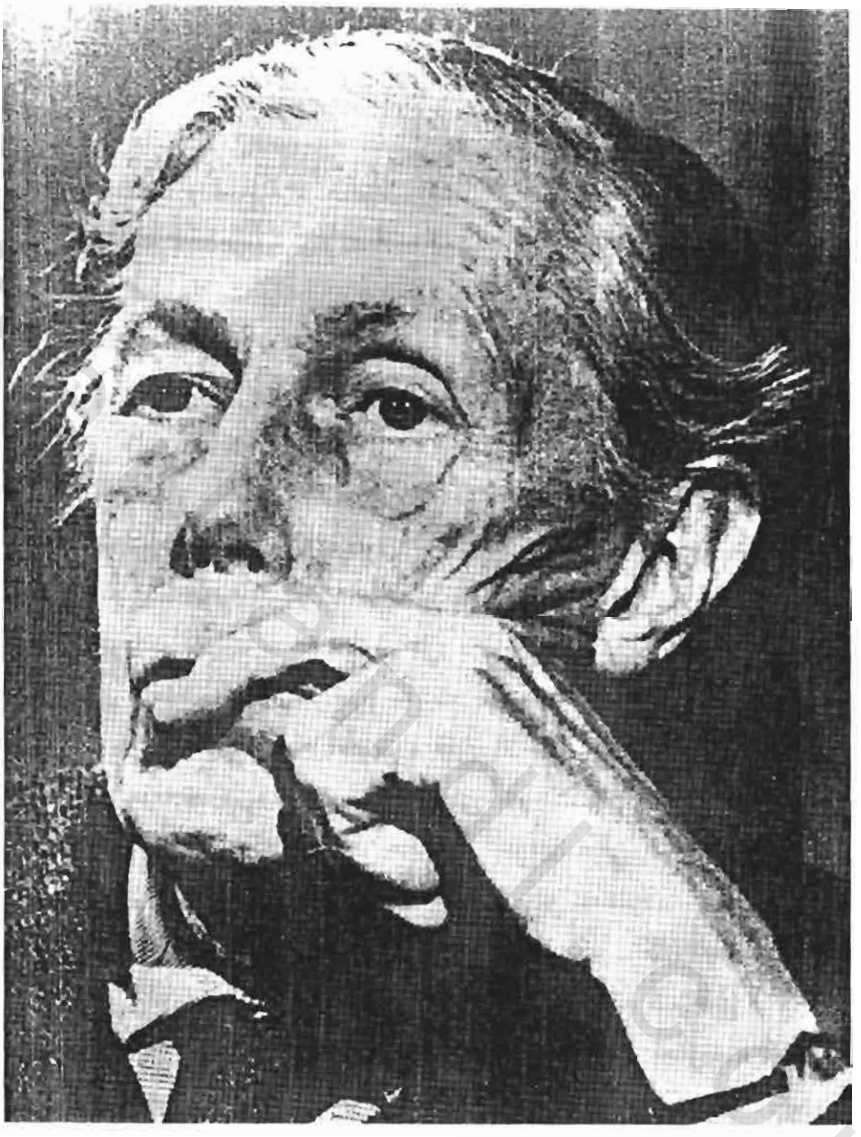

Anthony Blunt

ـ انطوني بلانت : الجاسوس الملكي .

مكنه عن الابلاغ بدقة عن المُراقب والمُراقَبْ .

عَمِلَ بلانت فيما بعد مع غاي بورغيس في عمليات موجهة ضدّ سفارات الدول المحايدة في لندن ، وكان يُجند رجالاً إسبانيين وبرتغاليين واسكندينافيين كعملاء لمكتب مكافحة الجاسوسية العسكرية ؛ كما تورّط بورغيس في مراقبة الحقائب الدبلوماسية والمخابرات الهاتفية ، فكان بذلك قادراً على متابعة المتعاملين مع مكتب مكافحة الجاسوسية والإتصال بالروس بآن معاً . وتقابل الرجلان في مواعيد منتظمة عند بلانت داخل معهد كورتولد بساحة بورمان ، وقاما بتحضير تقارير لرجل الإتصال السوفييتي ؛ كما قدما له وثائق سرية قام بتصويرها . وقد تضمنت تلك الوثائق ، في أواخر زمن الحرب ، خطط العملية الجريئة (خدعة دعائية هامة . كان الهدف منها تضليل الألمان وإقناعهم بأن موقع تنفيذ عملية « اليوم د سيكون في منطقة Pas - De - Calis في فرنسا، بينما كان الهدف الحقيقي منطقة نورماندي .) وكان للروس مصلحة في توسيع نطاق الحرب على الجبهة الغربية ـ ليستطيعوا السيطرة على منطقة أوروبا الشرقية . ولحسن الحظ لم يستخدموا معلومات بلانت ، مما حافظ على أرواح الآلاف من جنود الحلفاء .

على غير المعتاد ، ترك الروس بلانت يغادر مكتب مكافحة الجاسوسية العسكرية (إم اي ٥) بعد إنتهاء الحرب ـ ففي الأحوال العادية يبقى الجاسوس الذي تسلل إلى موقع مفيد كهذا في مكانه حتى يتم اكتشافه . وتبين فيما بعد أن بلانت قد استُبعد فقط لأنه كان هنالك جاسوس آخر يُماثله في الأهمية داخل وكالة مكافحة الجاسوسية العسكرية (إم اي ٥) ، يمدّ الكرملين بالمعلومات المطلوبة خلال سنوات الحرب الباردة . لكنّ بلانت لم يترك ارتباطه لموسكو . كان عمله الجديد ـ مشرف على صور الملك جورج السادس ـ غطاءً جيداً لنشاطاته كمراسل . لم يكن أحد ليشكّ بأنّه ينقل الرسائل إلى الجواسيس السوفييت ، ويجمع معلومات ، ويترك أموالاً في أماكن سرية للعملاء الآخرين ، وينقل الأنباء السارة التي كان يجمعها من محادثات عَرَضية غير رسمية مع زملاء له سابقين في مكتب مكافحة الجاسوسية العسكرية (إم اي ٥) . قام بلانت بكلّ هذه الأعمال معاً ، وأصبح سنداً لا غنى

(١) ـ اليوم د : هو يوم ٦ حزيران ١٩٤٤ الذي نزلت فيه القوات البريطانية والأمريكية والكندية والفرنسية والبولندية على الشواطىء الشمالية لفرنسا خلال الحرب العالمية الثانية .

عنه لعملاء خط الجبهة الروسية ـ حتى أنه أنقذ فيلبي من محنته بعد هروب بورغيس وماكلين .

بعد اختفاء الدبلوماسيين في عام ١٩٥١ ، أرادت قوى الأمن تفتيش شقة بورغيس في لندن . كان لدى بلانت مفتاحاً للشقة ، فأدخلهم إليها . وبينما كانوا يفتشون عن دليل إدانة ، لاحظ بلانت ثلاثة رسائل تفضح قيام بورغيس وفيلبي بنشاطات خيانية ، فوضعهم في جيبه خِلسةً .

عرف الروس بأن بلانت سيخضع لاستجواب دقيق بعد اختفاء زميله السابق بورغيس ، فقالوا له بأن يُنكر ويتملّص من معرفته بنشاطات بورغيس . وغمرت السعادة بلانت لدى تَسُلمه مهام عمله الجديد كمستشار قصر بكنغهام ، وصَرَّح بأنّه كان واثقاً من خروجه بسلام من أي تحقيق يُستجوب فيه . فَتركه الروس مَرَّة أخرى يشق طريقه بنفسه . واستطاع خلال الـ ١٢ عاماً التالية أن يُحافظ على وعده ـ حتى أنه كان قادراً على متابعة إرسال المعلومات إلى السوفييت ، مساعداً بذلك على إعادة فيلبي إلى نشاطه في عام ١٩٥٤ ، وزيارته في بيروت .

تخلّى عنه حُسن الطالع في عام ١٩٦٣ ، إذ أنّ شاباً أمريكياً لامعاً جُنّد من قِبَل موسكو في كامبريدج خلال الثلاثينات ، ثُمَّ عُرض عليه عمل مستشار فني في واشنطن من قبل الرئيس كينيدي . ورُغْمَ رفضه هذا العمل ، إلاَّ أنه انتهز الفرصة ليريح ضميره . فاعترف بأنه قدَّم للروس تقارير عن مواقف شخصية للأمريكيين ، وسمى بلانت بـ«العميل الروسي المعروف» وأدرج اسمه مع آخرين في قائمة اعترافه .

وفي نيسان من عام ١٩٦٤ ، تَمَّت مواجهة بلانت بتلك المعلومات من قِبل المحقق آرثر مارتين الذي كلّفه جهاز مكافحة الجاسوسية العسكرية (إم اي ٥) بالتحقيق في القضيّة . وقيل له بأنّ السير جون هوبسون قد منحه حصانة من الملاحقة القضائية ـ في حال اعترافه . دون معرفة منه بما فعله بلانت ، وناسياً أنّ الحصانة من الملاحقة القضائية لا تُمنح إلا إذا كان العميل قد توقف عن أعمال التجسس في عام ١٩٤٥ ؛ عندما كانت روسيا حليفاً ـ فلم يعد هنالك ما يخشاه . وكان قادراً عندئذٍ على الإعتراف ، فأدلى باعترافاته ، وسمى بعض الأشخاص الذين جندهم للعمل معه ـ كما أعطى معلومات مضللة لحماية آخرين .

لماذا أعطيت له الحصانة بهذه السرعة ؟ لقد كان صحيحاً بأن مكافحة الجاسوسية العسكرية (إم اي ٥) لم يكن لديهم دليل مادي يعتمدون عليه في ملاحقتهم للجواسيس . ففكروا بأنهم بهذه الطريقة سيسمحوا لجاسوس واحد بأن ينجو في مقابل أن يقودهم إلى الإمساك بالعديد من الجواسيس . لكن لم يكن أيٌّ منهم يدري مدى تورّط بلانت في الجرائم ـ التي لو أنه قام بها في زمن الحرب لقادته إلى حبل المشنقة بتهمة الخيانة . أما السبب الحقيقي الذي يكمن وراء «العفو» غير المعلن ، فهو علاقات بلانت نفسه بالقصر الملكي .

في عام ١٩٤٦ ، طلب «قصر بكنغهام» من مكتب مكافحة الجاسوسية العسكرية أن يسمي متطوعاً جديراً بالثقة ، لإرساله ، في مهمة غاية في الأهمية ، إلى ألمانيا . ولم يكن بلانت وقتها يعمل في جهاز الإستخبارات ، لكنّه وافق على القيام بالمهمة ـ التي لم يكشف عن ماهيتها مطلقاً . لكنّ مكافأته التي حصل عليها بعد عدة سنوات ـ بتنصيبه قائداً للفصيلة الملكية الفيكتورية ـ دلّت على أهميتها البالغة . وربما كانت تلك المهمة أيضاً عاملاً رئيسياً وراء حصوله على لقب فارس في أيار من عام ١٩٥٦ . وفي شهر شباط من عام ١٩٨٣ ، كتب تشابمان بينشر في صحيفة الديلي اكسبريس أن ضباط مكتب مكافحة الجاسوسية العسكرية (إم اي ٥) اعتقدوا بأن تلك المهمة كانت لسرقة تسجيلات محادثات ، من المحتمل أن تكون محرجة، جرت بين هتلر ودوق ويندسور ـ عم الملكة الحالية ـ خلال زيارة الأخير لبرلين في عام ١٩٣٧ . لكنّ بلانت نفى في اليوم التالي ما جاء في التقرير مُدّعياً بأنّه جمع رسائل فقط كتبتها الملكة فيكتوريا إلى ابنتها إمبراطورة بروسيا . لكنّه لم يشرح سبب أهميّة جمع هذه الرسائل بسرعة بعد الحرب ـ بعد نصف قرن من كتابتها بالتحديد .

من الواضح أن ورود اسم العائلة المالكة في محاكمة جاسوس في الستينات ـ عندما كان هنالك فيض من محاكمات الجواسيس ـ لم تكن لتهم أحداً . لهذا فعندما حُكِم على جاسوس سوفييتي أقل أهمية مثل فاسول بالسجن لمدة ١٨ عاماً ، أُعيد بلانت إلى عمله في القصر ، واستعاد مركزه وسمعته ، إلى أن نشر الكاتب أندرو بويل كتابه «مناخ الخيانة» في عام ١٩٧٨ . لم يُذكر اسم بلانت صراحة في الكتاب . لكنّه سرد كل ما قام به من فساد ، مما أدى إلى استثارة الرأي العام لدى

ظهور أدلة جديدة في قضية فيلبي وبورغيس وماكلين . وأُجبرت السيدة تاتشر بسبب هذه المستجدات الى الكشف عن بلانت في نهاية الأمر للرأي العام . مات بلانت في شهر آذار من عام ١٩٨٣ عن عمر يناهز السادسة والسبعين ، مكروهاً بعدما جُرد من ألقابه وساءت سمعته ، ولم يعلن الحداد في جنازته .

أعطى بلانت المحققين أسماء عديدة لعملاء روس آخرين ، غالبيتهم أقل أهمية منه ، أو ممن تقاعدوا . لكنه أنكر على الدوام وجود الرجل الخامس المزعوم في حلقة كامبريدج ، وحسب رأي تشابمان بينشر ، فقد عرفت سلطات الأمن بوجوده ـ وعرفت من هو . وكشف في كتابه «الخيانة تجارتهم» أن الجاسوس الخامس قد جنده بورغيس وفيلبي في كامبريدج بعد عودة فيلبي من فيينا . وأخفى اتصالاته مع الروس ليحصل على عمل في محطة الدفاع الحكومية ـ كباحث مدني في مجال العلوم . كما تعرف على يوري مودين وسيرجي كوندراتشيف الذي أُرسل إلى بريطانيا بشكل خاص ليتعامل مع كل من العَالم وجورج بلايك .

عندماووجه بالدليل في عام ١٩٦٦ ، حول ماضيه وعُرضت عليه الحصانة من الملاحقة القضائية ، انهار واعترف . وبما أنه كان على أبواب التقاعد ، فقد سُمح له بأن يتابع عمله في وظيفة غير سرية . ويبقى اسمه ومدى الأضرار التي قام بإحداثها سراً ـ فعلينا أن ننتظر ـ حسب رأي بينشر إلى ما بعد وفاة هذا الشخص للكشف عن ما يعجز القانون عن كشفه الآن .